دار الحديث العراقية

جزء عم

تفسير سورة

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين اللهمَّ إنَّا نسألك رحمتك فهي خيرٌ مما يجمعون .

أمَّا بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة ((وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)) هكذا وردتْ تسميتُها في السُّنة النَّبوية ، ففي جامع الترمذي من حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالعَصْرِ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ ، وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ، وَشِبْهِهِمَا)) .

أما نزولها : فهي مكية نزلت بعد سورة الشمس ، عدد آياتها : اثنتان وعشرون آية ، وعدد كلماتها : مائة كلمة ، وتسع كلمات .

وعدد حروفها ، أربعمائة وثمانية وخمسون حرفاً ، وهي معدودةٌ السابعةُ والعشرون في تَعداد نزول القرآن .

ومحورُ السورة الكلام عن الفتن والمحن التي تمرُّ في الدهور والعصور ، وتسليةُ المؤمنين بأنَّ ما أصابهم ويُصيبُهم قد أصابَ غيرَهم ، قال تعالى : ((إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِين)) .

وتضمنتِ السورةُ الكلامَ عن القرآن ؛ فالتمسكُ به هو العاصم من كل فتنةٍ ، وتضمنتْ أنَّ القرآن الذي يُكذبُ به المجرمون قرآنٌ مجيدٌ تدلُ صفاتُ مجدِهِ على أنَّه مُنزلٌ من عند الله ، وأنَّه في لوح محفوظ عند الله ، وهو منزلٌ على رسول الله كما هو في اللوح المحفوظ .

وقدِ افتُتحتِ السورةُ بالقسم من الله بما يدلُ على باهر قدرته ، واختتمت بالحديث عن القرآن وحفظِه ، وهو يدل على باهر حكمته .

أما أغراضُ السورة ، فللسورة ثلاثة أغراضٍ رئيسة :

الأول : تنفير الناس من الظلم والعدوان على الآخرين ، وأنَّ ذلك يوقع العقاب على الظالمين في الدنيا والآخرة .

الثاني : بيان أنَّ المسلمين يصيبهم قرحٌ في حياتهم ، وتمرُّ عليهم حالاتٌ شديدةٌ من تُسلط الظالمين ؛ ليتمحصَ الإيمانُ في قلوب المؤمنين ، ففي السورة تسليةٌ للمؤمنين وتصبيرٌ على ما يقع لهم وبيانُ أنَّ الفوز بالثبات ؛ إذ قد سمّى اللهُ ثباتَ المؤمنين بالفوز الكبير ، وقد أخرج ابن شيبة في مصنفه عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ ، قَالَ : ((لَوْ كَانَ الْمُؤْمِنُ عَلَى قَصَبَةٍ فِي الْبَحْرِ لَقَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُؤْذِيهِ)) وأسند ابنُ المقرئ في معجمه عن طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ قَالَ : ((لَوْ صَارَ الْمُؤْمِنُ عَلَى قَصَبَةٍ فِي الْبَحْرِ ، لَقَيَّضَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مَنْ يُؤْذِيه)) .

الثالث : ما قاله العلماء : ((وفيه أنَّ أُولَئِكَ الكفرة بلغ من ضنهم بدينهم ما يقاتلون عليه مَنْ أظهر مخالفتهم في الدِّين ؛ ليعلموا أنَّ القتال لمكانِ الدِّين ليسَ بأمرٍ شاقٍ خارج من الطباع ؛ بلِ الطباعُ جُبلتْ على القتال مع من عاداهم في الدِّين ؛ فيكون فيه ترغيبٌ للمسلمين على قتال الكفرة إذا امتُحِنوا به)) .

وأما مناسبتها لما قبلها فكما قال المراغي :

(١) اشتمالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعيدِ الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته .

(٢) أنَّه ذكر فى السورة السابقة أنَّه عليم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المكر والخداع ، وإيذاء من أسلم بأنواعٍ من الأذى كالضرب والقتل والإلقاء فى حماوة القيظ .

وذكر هنا أنَّ هذه شنشنة مَنْ تقدمهم من الأمم ، فقد عذّبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود ، وفى هذا عظةٌ لقريش ، وتثبيتُ مَنْ يعذبون من المؤمنين .

قال تعالى : ((**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ**)) يقسم ربُنا جلَّ جلالُه بالسماء ذات البروج ، أي : ذات النجوم التي لها مساراتٌ عظيمة . فقد أقسَم الله تعالى بالسماءِ البديعة ، وما فيها من نجوم لِينبِّهَنا إلى ما فيها من دقة الصنع ، وبالغ الحكمة ، لِنعلمَ أنَّ الذي خلَقها أجلُّ وأعظمُ ، وأنَّه القادر على كل شيء .

والقسم في كتاب الله له مناسبة بين المقسم به والمقسم به أدركه من أدركه وغاب عن من غاب عنه ، فربنا أقسم بالسماء ذات البروج في مقابلة الأخدود الذي حفروه في الأرض ، ففي القسم بالسماء الإشارة إلى من فوق السماء ينتقم ويعاقب الظالمين ، وينتصر للمظلومين كما قال تعالى مُهدداً : ((أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)) .

وفي القسم بالسماء ذات البروج الإشارة إلى عظمة الخلق والإبداع ، فالسماءُ ذاتُ أبعاد فضائية وزّع الله فيها النجوم والكواكب توزيعاً مُتقناً ، وجعل فيها منازل ومداراتٍ ، وأبدع ربنا تنظيم حركاتها إبداعاً مُذهلاً ، وجعل فيها قوىً وجذابيات حتى يدور كل كوكب في فلكه لا يخرج عن خط سيره ؛ لذا تجد علماء الفلك يجدون إتقاناً مذهلاً ونظاماً بديعاً لا يخرم حدودَه ، فتدرك أنَّ القسم بالسماء ذات البروج هو آيل إلى صفة من صفات الله التي تدل على علمه المحيط بكل شيء وعلى قدرته وحكمته العجيبة .

ثمَّ أقسم ربنا بيوم القيامة ، وهو اليوم الموعود به فقال تعالى : ((**وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ**)) فهو يومٌ عظيمٌ، وعدَ اللهُ فيه الخلائق للقصاص والجزاء والحساب .

ثُمَّ جاءَ القسمُ الأعم : ((**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُود**)) وهو قسمٌ شاملٌ يَشملُ كلَّ شاهدٍ راءٍ ، وكلَّ مشهودٍ محسوسٍ مرئي ، وكلَّ شاهد على أحد ومشهود عليه ، كما أنَّ اللهَ شاهدٌ والملائكةُ يشهدون كمال قال تعالى : ((لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)) وكذا الأنبياء من قبل ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ((فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)) .

كما أنَّ يومَ الجمعة شاهدٌ لمن حضره ، وكذا يوم عرفة .

والقرآن بإعجازه في مبانيه ومعانيه شاهدٌ دائمٌ على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رسالته.

ومشهود هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، أي : مشهود له بالنبوة والرسالة من قبل الشاهد وهو القرآن المعجز .

ثم بعد القسم يأتي جواب القسم ، لبيان واقعة أصحاب الأخدود .

قال الواحدي في تفسيره الوجيز : ((أخبر الله تعالى عن قصَّة قومٍ بلغتْ بصيرتُهم في إيمانهم إلى أنْ صبروا على أَنْ أُحرقوا بالنَّار في الله)) وقال الزجاج : ((الْمرَاد من الْآيَة أَنَّ الله تَعَالَى ذكر قوماً بلغت بصيرتهم فِي الدّين أنْ خُيّروا بَين الْكفْر وَبَين الإحراق بالنَّار ، فصبروا حَتَّى أُحرقوا بالنَّار)) .

وهذا منهما نظرٌ جدٌّ ؛ فالقسمُ مناسبٌ جداً ، فالقاتلُ شاهدٌ ، والمقتولُ مشهودٌ .

قال ابن عاشور : ((فِي افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِهَذَا الْقَسَمِ تَشْوِيقٌ إِلَى مَا يَرِدُ بَعْدَهُ وَإِشْعَارٌ بِأَهَمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَلْفِتُ أَلْبَابَ السَّامِعِينَ إِلَى الْأُمُورِ الْمُقْسَمِ بِهَا ، لِأَنَّ بَعْضَهَا مِنْ دَلَائِلِ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ تَفَرُّدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ وَإِبْطَالَ الشَّرِيكِ ، وَبَعْضُهَا مُذَكِّرٌ بِيَوْمِ الْبَعْثِ الْمَوْعُودِ ، وَرَمَزَ إِلَى تَحْقِيقِ وُقُوعِهِ ، إِذِ الْقَسَمُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِشَيْءٍ ثَابِتِ الْوُقُوعِ وَبَعْضُهَا بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِبْهَامِ يُوَجِّهُ أَنْفُسَ السَّامِعِينَ إِلَى تَطَلُّبِ بَيَانِهِ)) .

ثم جاء جواب القسم فقال تعالى : ((**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**)) أي : لعن أصحاب الأخدود لعناً أبدياً ، وأصحابُ الأخدود الظلمةُ الذين قتلوا المؤمنين ، وهو إعلامٌ أنَّ عقوبةَ الله ولعنتَه حلتْ على أولئك القتلة الفجرة الذين قتلوا المؤمنين ، وكانوا يتلذذون بمشاهدة المؤمنين من الرجال

والنساء والصبيان ، وهم يُحرقون بالنَّار حال يُلقونهم فيها ، وهي حالٌ عظيمةُ البشاعة وهو الإحراقُ بالنار .

وقد نسب اللهُ القتلة إلى الأخدود ، والأخدودُ معروفٌ ، وهو الشق في الأرض ؛ لأنَّهم أوقدوا الأخدود بالنار ، ثم ألقوا المؤمنين فيه .

وأصحاب الأخدود : قومٌ كفرةٌ طغاةٌ بغاةٌ ظلمةٌ حفروا الأخدود ، وأوقدوا فيه النار للتنكيل بالمؤمنين وتحريقِهم لمجرد أنَّهم آمنوا بالله العزيز الحميد .

ثم قال تعالى : ((**النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**)) والنارُ بدلُ اشتمالٍ إشارةً إلى عِظم النار ، وعظمِ الإحراق بكثرة الوقود الذي وضع في الأخدود ؛ فاشتمل الأخدود على النار .

والوَقود بفتح الواو هو الحطب ، وكلُّ مادةٍ توقدُ فيها النار .

و(ذاتِ الوقود) : صفةٌ للنار .

قال تعالى : ((**إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ**)) والمقصودُ الظلمةُ وأعوانُهم الذين أوقدوا النار ، فقعدوا حولها كأنَّهم في حالة استعراض يتفرجون ويتمتعون بمنظر القسوة ، وفيه الإشارةُ إلى الجحود والقسوة والغِلظة في قلوبهم ، وفيه الإشارةُ إلى تمكنِّهم من النار التي هي نعمة تستخدم في الخير في الدنيا ، ومن كفرها أنْ تستخدم بالشر .

قال تعالى : ((**وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ**)) فهم شهودٌ على فعل أنفسهم ، وهم حضورٌ للموقف الإجرامي ، وهذا يتناسبُ مع القَسم السابق : ((**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**)) وأشدُ الشدة أنْ يشهدَ الإنسانُ على نفسه . فهم شهودٌ على أنفسِهم في الدنيا شهودٌ على أنفسهم في الآخرة.

وفي هذه الآية تذكيرٌ وتحذيرٌ من كل جرم يجرمه الإنسان أو يشهده فمعناها : أي : أذكر شناعة جريمة أصحاب الأخدود ؛ إذ هم على نارهم مشرفون قعودٌ يشهدون تحريقَ الذين آمنوا ، وتحصيل معنى ذلك : ضع هذا في محصلتك أيُّها القارئ بشاعة هذا المشهد الإجرامي ، وفي هذه الآية الكريمة بيان ما يحصل الآن من شهود الناس قتل المسلمين في الهند والصين وبورما وغيرها ، وربنا يداول الأيام بين الناس ويبديء ويعيد .

ثُمَّ بيّن ربُنا سببَ استهداف المؤمنين وانتقامهم منهم ، فقال تعالى : ((**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**)) أي : ما أخذوهم على شيء من أمر الدنيا إلا بسبب إيمانهم . ((**وَمَا نقموا مِنْهُم**)) أي : مَا كَرِهُوا مِنْهُمْ ((إِلا أَنْ يُؤمنُوا بِاللَّه الْعَزِيز الحميد)) يعني : مَا سَفَكُوا لَهُمْ دِمَاءً، وَلا أخذُوا لَهُم مَالاً إلا بسبب إيمانهم فهو استئناف مُفصحٌ عن براءتِهم عَمَّا يُعابُ وينكرُ بالكلية ؛ فهو مدح جاء بصيغة بلاغية .

قال الواحدي : ((أَيْ : ما أنكروا عليهم ذنباً إلاَّ إيمانَهم)) . وقال الزمخشري : ((وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان)) .

قال الماتريدي : ((وقوله – عَزَّ وَجَلَّ –: (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ذكر (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) لِيعلم أنَّه لا يلحقه ذلٌ بما يحل من الذل بأوليائه وأهل طاعته ، ولا في حمده قصورٌ بقهر أوليائه ، خلافاً لما عليه ملوك الدنيا ، وذلك أنَّ ملوك الدنيا إذا حل بأولياء واحد منهم ذل ، كان الذل حالّاً فيه أيضاً ، وإذا قهر بعض أتباعه فترك نصرهم وهو قادر على نصرهم واستنقاذهم لم يحمد ذلك منه ، ولحقته المذمة ؛ وذلك لأنَّ الملك إنَّما استفاد العز بأتباعه وأنصاره، فإذا استُذل أتباعُهُ ، زال ما به نال العز ؛ فلحقه الذل ، ونال الحمد – أيضاً – بالإحسان إلى مملكته ، فإذا ترك نصرهم وهو مُمَكَّن من ذلك ، فقد ترك إحسانَه إليهم ؛ فصار به غير ممدوح ولا محمود ، واللَّه – تعالى – استحق العز والحمد بذاته لا بأحد من خلائقه ؛ فلم يكن في إذلال أوليائه ما يوجب النقص في وصف الحمد ، ولا ما يوجب قصوراً في العز.

والثاني : أنَّ الدنيا وما فيها أنشئت للإهلاك ، ولعل الإهلاك بما ذكر أيسر عليهم من هلاكهم حتف أنفهم ، وكان في ذلك النوع من الهلاك نيل درجة الشهداء ، وهي التي ذكرها اللَّه – تعالى– في قوله : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ. . .) الآية، ولا تُنال تلك الدرجة بموتهم حتف أنفهم ، فهذا أبلغ نصراً منه إياهم.

ثم للجزاء والعقاب دار أخرى فيها يظهر تعزيز الأولياء وقمع الأعداء ؛ فلم يكن في ترك النصر في الدنيا ما يوجب وهناً ولا ذلاً ، وأمَّا ملوك الدنيا إذا تركوا نصرهم وقت ملكهم لأوليائهم ، لم

يتوقع منهم النصر بعد ذلك ؛ إذ ليست في أيديهم إلا المنافعَ الحاضرةَ ؛ لذلك لحقتهم المذمة بترك النصر، والله أعلم .

ثم ليس في إهلاك أُولَئِكَ القوم الذين آمنوا واقتدارِهم عليهم إيهامٌ أنهم كانوا على الحق والصواب، وأنَّ المؤمنين كانوا على الخطأ ؛ لأنَّ الإهلاك إنَّما يصير آية إذا كان على خلاف المعتاد ، وإهلاكهم لم يكن كذلك ؛ لأنَّ عددهم كان كثيراً ، وكان في المؤمنين قلةٌ ، وإهلاك الكثير للقليل غير مستبعد ؛ بل هو أمر معتاد ، وغلبة الفئة القليلة الفئة الكثيرة هي التي تخرج من حد الاعتياد؛ فيكون فيها آية : أنَّ الفئة القليلة على الحق والأخرى على الباطل ، وذلك نحو غلبة رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – يوم بدر بمن معه من المسلمين مع قلة أعدادهم وضعفهم في أنفسهم ، وكثرة أتباع الكفرة وقوتهم وجلادتهم في أنفسهم)) انتهى .

و(العزيز) و(الحميد) اسمانِ من أسماء الله ؛ فالعزيزُ اسمٌ وصفةٌ ، وفيه تنبيه على أنَّ اللهَ عزيزٌ غالبٌ لا يقهر قادرٌ أنْ ينتقم من هؤلاء المعتدين .

وتأمل الآية جيداً : ((وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)) .

فالنقمة هنا بمعنى الإنكار والكراهية . يقال : نَقَم فلانٌ هذا الشيء ، – من باب ضرب– إذا كرهه وأنكره .

أي : إنَّ هؤلاء الكافرين ما كرهوا المؤمنين ، وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من عذاب ، إلا لشيء واحد، وهو أنَّ المؤمنين أخلصوا عبادتهم لله– تعالى– صاحبِ العزة التامة ، والحمدِ المطلق ، والذي له ملك جميع ما في السموات والأرض ، وهو– سبحانه وتعالى – على كل شيء شهيد ورقيب ، لا يخفى عليه أمرٌ من أمور عباده ، أو حالٌ من أحوالهم قلَّ أو كثر

فالمقصود من هاتين الآيتين الكريمتين ، التعجيبُ من حال هؤلاء المجرمين ، حيث عذّبوا المؤمنين ، لا لشيءٍ إلا من أجل إيمانهم بخالقهم ، وكأنَّ الإيمان في نظرهم جريمةٌ تستحقُ الإحراق بالنار .

و(الحميد) اسمٌ وصفةٌ ؛ فهو المحمود الذي يُحمدُ على الخير وعلى كل حال . ويحمدُ عبادَه على الخير ، وعلى الصبر والثبات ، وفيه إشارةٌ أنَّه سيكافيء عبادَهُ على صبرهم ؛ وهو الذي يَكْثُر منه فعل ما يَحمدُهُ عليه خلقُه ، والذي له كلُّ ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وحُكماً ، وهو مطلعٌ على كل شيء لا تخفى عليه منهم خافية ، وهو مُطّلع على ما يفعله الكفّار بأوليائه؛

فختمُ الآية بهذين الاسمين مناسبٌ ؛ فـ(العزيز) مناسبٌ لجرمِ المجرمين للانتقام منهم ، و(الحميد) مناسبٌ لصبر المؤمنين لمجازاتهم ومكافأتهم .

ثمَّ أشارَ إلى مُلكه وعظيمِ جزائه ، وهو مما يدلُ على عزّته وحمده : ((**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)) وهو تنبيهٌ على أنَّ القتلة وإنْ كانوا مُلوكاً أو فيهم ملوك فالله ملك الملوك ومالك رقاب الخلق أجمعين .

((**لَهُ مُلْكُ السموات والأرض**)) أي : وكل من فيهما يحق عليه عبادتُه والخشوعُ له ، وإنَّما ذكر ذلك تقريراً ؛ لأنَّ ما نقموه منهم هو الحقُّ الذي لا ينقمه إلا مبطلٌ منهمك في الغيّ .

قال العلماء : ((ذكر هذا ؛ ليعلم أنَّه لا يدخل في ملكه قصور بقتل أوليائه وأنصار دينه ؛ لأنَّ الخلق كلَهم عبيد لله – تعالى – وإماؤه، والسيد إذا قتل بعض مماليكه بعضاً ، لم يلحق السيد بذلك ذل ولا نقص ، وإنما يدخل عليه الذل إذا قتلهم غير مماليكه، فإذا كان الخلق بأجمعهم عبيدًا لله – تعالى – لم يكن في قتل بعضٍ بعضًا نقص يدخل في ملكه)) .

وقد ختمت الآية بقوله : ((**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)) فاللهُ سبحانَهُ وتعالى عليمٌ بصيرٌ خبيرٌ حسيبٌ رقيبٌ مهيمنٌ شهيدٌ يرى ويعلمُ ويسمعُ إجرام المجرمين وكيد الكائدين ((وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)) ، وقال تعالى : ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)) .

إذن : ((وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) ، أي : يحفظ عليهم أعمالَهم ؛ فيجازيهم بها ، لا يعزبُ عنه شيءٌ .

وتأمل الآية جيداً : ((وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِعَمَلِهَا .

ثم قال تعالى : ((**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**)) أي : إنَّ الذين أحرقوا المؤمنين والمؤمنات وابتلوهم بالنار والعذاب .

((**فلهم عذاب جهنم**)) بكفرهم ((**ولهم عذاب الحريق**)) بما أحرقوا المؤمنين ، والجزاء من جنس العمل ، وللمؤمنين نعيم عموماً وخصوصاً لأجل ما عُذّبوا به يتنعمون بالنظر إلى من عذّبهم في الدنيا كما مر في سورة : ((ويل للمطففين)) .

قال ابن القيم : ((وهذا شأنُ أعداءِ الله دائماً يَنقِمونَ على أوليائه ما ينبغي أنْ يُحَبُّوا ويُكرموا لأجله ، كما قال تعالى : ((قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُون)) وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزههم عن مثل فعلِهم فقالوا : ((أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)) وكذلك أهلُ الإشراك ينقِمونَ من الموحِّدين تجريدَهم التوحيد ، وإخلاصَ الدعوة والعبوديةِ لله وحدَه ، وكذلك أهلُ البدعِ ينقِمون من أهل السنة تجريدَ متابعتِها وتركَ ما خالفها ، وكذلك المعطِّلة ينقِمون من أهل الإثباتِ إثباتَهم لله صفاتَ كمالِه ونعوتَ جلاله ، وكذلك الرافضةُ ينقِمون على أهل السنَّة محبَّتَهم للصحابة جميعِهم وترضِّيهم عنهم وولايتَهم إيّاهم ، وتقديمَ من قدَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وتنزيلَهم منازلِهم التي أنزلهم اللهُ ورسولُه بها . وكذلك أهلُ الرأي المحدَثِ ينقِمون على أهل الحديث وحزبِ الرسول أخذَهم بحديثه وتركَهم ما خالفه ، وكلُّ هؤلاء لهم نصيبٌ ، وفيهم شَبَهٌ من أصحاب الأخدود ، وبينهم وبينهم نَسَبٌ قريبٌ أو بعيد)) .

فقوله – عَزَّ وَجَلَّ –: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ الفتنة : المحنة ، وهي مأخوذة من فتن الذهب إذا أذابه ؛ لأنَّه يذيبه ؛ ليميز به بين ما خبث منه وبين ما صفا ، وبين الذهب وبين ما ليس بذهب ؛ فاستعملت في موضع المحنة ؛ لأنَّ المحنة هي الابتلاء ؛ ليتبين بها الصادقُ من الكاذب ، والمحقُ من المبطل ، وذلك يكون بالأمر والنهي ؛ فَسُمي الأمرُ والنهيُّ من الله – تعالى – امتحاناً لهذا ، مع أنَّ الله لا يخفى عليه شيء ، ثم وجهُ فتنتهم : أنَّهم اتخذوا الأخاديد وأوقدوا فيها النيران ؛ ليُلقوا فيها من ثبت على الإيمان ودام عليه ، ويتركوا إلقاء من رجع عن دينه ، فقيل : فتنوا ؛ لهذا ، وهذا أشد الفتنة.

وفي قوله : ((**ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**)) بيانُ سعةِ رحمةِ اللهِ وكرمه وعطفه لمنْ تابَ وأنابَ وعملَ صالحاً ، فلو أنَّهم تابوا لتابَ اللهُ عليهم لكنَّهم لم يتوبوا .

وفي قوله : ((**فلهم عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق**)) بيانٌ للعذاب الأليم ، وأنَّه يضاعفُ لهم عذابُ الحريق جزاءً وفاقاً .

ثمَّ بيّن اللهُ جزاءَ المؤمنين الصابرين عموماً فقال تعالى : ((**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِير**)) أي : إنَّ الذين أقرّوا بتوحيد الله من الذين عُذّبوا بالنار وغيرِهم من المؤمنين وعملوا بطاعة الله بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه لهم بساتين في الجنة عظيمةٌ فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر . وأولُ من يدخل في هذا السياق المؤمنون الذين أُحرقوا بالأخدود ؛ لأنَّهم صبروا وصابروا ، وتأملْ سياقَ ختم الآية الكريمة بقوله تعالى : ((**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِير**)) وهو وصفٌ عظيمٌ قد جعله اللهُ جزاءً للصابرين ، والفوزُ النجاةُ من المرهوب ، والظفرُ بالمطلوب .

فقوله: (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) الفائز هو الذي يظفر بما يأمل ، وينجو عما يخاف ، ويحذر ، ووُصِفَ أنَّه كبير ؛ لأنَّه ليس لما أنعم زوالٌ ولا انقطاع ، فهو الفوز الذي تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من رغائب لا تفنى .

و(ال) في (الصالحات) ليس المراد بها استغراق كل الصالحات ، بل ما يدل على صدق الإيمان .

ثم قال تعالى مُهدداً المجرمين : ((**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد**)) والبطشُ هو الأخذ ، أي : الأخذُ بقوة والأخذ بشدة ، أي : إنَّ أخذ ربك وانتقامَه شديدٌ كما أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال : ((إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)) قَالَ : ثُمَّ قَرَأَ : ((وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)) أخرجه البخاري .

وفي ذكر الرب في قوله : ((**رَبِّكَ**)) مناسبةٌ في تصبير المؤمنين ، فهي كلمةٌ تحملُ معنى الرحمة والرعاية والعناية والتدبير ، وفيها أنَّ الله يحمي أوليائه وينصرهم من كيد الكافرين ، فهو ربُك الذي ربّاك ويحوطك ويحميك من بطش أعدائك .

ثم قال تعالى : ((**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيد**)) وفي هذه الآية إشارة إلى عظمة الله ، وهو أنَّه سبحانه وتعالى يبدئُ ويعيدُ كلَّ شيءٍ مما هو قابلٌ لهذا وذاك ، فربُنا يداولُ الأيامَ بينَ الناس ، ومن ذلك أنَّه يُبدئُ الامتحانَ والاختبارَ ويعيدُهُ متى شاء وأين شاء كما حصل الامتحان للمؤمنين الذين

أُحرقوا بالنار ، ويدخل في الآية دخولاً أولياً : أنَّ الله يحيي ويميت فهو يبدأ الخلق ثم يميتهم ثم يحيهم ، وأنَّ الله ذا البطش الشديد يبدئُ العذاب على الكافرين في الدنيا ويعيده عليهم في الآخرة .

وفي هذه الآية تأميلٌ وتخويفٌ حتى يستمسك المؤمن بصراط الله المستقيم .

ثم قال تعالى : ((**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُود**)) والغفور هو الذي يمحو الذنوب ممن يشاء من عباده رحمةً وتفضّلاً ، والغفورُ صيغةُ مبالغةٍ لكثرة مغفرته وعظيم عفوه .

والودود صيغة مبالغة من الود ، وهو كثير الحب لأوليائه ، والود هو المحبة الخالصة الصافية

والودود : المتودد إلى عباده بنعمه ، والذي يَوَدُّ من تابَ إليه ، وأقبل عليه ، وهو المحبوب الذي يحبه أوليائه ، وقد قال البخاري في صحيحه : الودود الحبيب ، فاللفظ يدل على الأمرين يدل على كونه وادّاً لأوليائه ، وموداً لهم ، فهو الحبيب المحبُّ لأوليائه يحبهم ويحبونه وقال شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ((إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)) قال ابن القيم : ((وما ألطفَ اقترانَ اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فإنَّ الرجلَ قد يغفرُ لمنْ أساءَ إليه ولا يحبُّه ، وكذلك قد يرحم من لا يحِب والربُّ تعالى يغفرُ لعبده إذا تاب إليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ؛ فإنَّه يحب التوابين ، وإذا تابَ إليه عبده أحبَّه ، ولو كان منه ما كان)) .

((**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيد**)) أي : الله الكريم الذي له صفات الكمال المطلق هو صاحب العرش العظيم ، والعرش أعظم المخلوقات .

ومجد الله : عظمته أيضاً ، ومجد العرش : علوه وعظمته كما جاءت القراءتان .

((**ذو العرش**)) خالقه ومالكه ((**المجيد**)) المستحقُّ لكمال صفات العلو والمدح .

قال ابن عاشور : ((وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ مَا تَعَلُّقُهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ بِحَسَبِ مَا يَسْتَأْهِلُونَهُ مِنْ جَزَاءٍ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِصِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِطْرَادِ وَالتَّكْمِلَةِ بِقَوْلِهِ : ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ تَنْبِيهًا لِلْعِبَادِ إِلَى وُجُوبِ عِبَادَتِهِ لِاسْتِحْقَاقِهِ الْعِبَادَةَ لِجَلَالِهِ كَمَا يَعْبُدُونَهُ لِاتِّقَاءِ عِقَابِهِ وَرَجَاءِ نَوَالِهِ .

وَالْعَرْش : اسْمٌ لِعَالَمٍ يُحِيطُ بِجَمِيعِ السَّمَاوَاتِ ، سَمِّيَ عَرْشًا لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَّا يَدُلُّ الْعَرْشُ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهُ مِنَ الْمُلُوكِ .

وَالْمَجِيدُ : الْعَظِيمُ الْقَوِيُّ فِي نَوْعِهِ)) .

والآيةُ الكريمةُ متضمنةٌ القوةَ والحكمَ المطلق ، وفي ذلك تعريضٌ بأهل الدنيا الذين خُولّوا ملكاً زائلاً .

و(المجيد) الكريم كما فسره ابن عباس .

((فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد)) فعال صيغة مبالغة من (فَعَل) وهي صيغة تدل على كثرة مفعولاته ، أي : كثرة الأشياء التي يفعلها سبحانه وتعالى

فربنا جل جلاله له إرادة ، وله قدرة ، وما أراده الله يتحقق ، وهذا لا يكون إلا لله فمن كمال هذا الرب المجيد أنَّه يفعل ما يشاء متى شاء وكيف يشاء لا يردُّه أحدٌ عن ذلك ولا يحدُّه أحدٌ ، أما المخلوق فإرادته لا تستدعي الفعلَ وتحقيقَ المراد ؛ إذ ليس كلُّ ما أراده المخلوق قدر عليه ، بل ذلك مناطٌ بمشيئة الله ، وكثيراً ما توجد العوائق والموانع التي تحول دون إرادة المخلوق . وربنا له كمال الإرادة وكمال القدرة ، وربنا لا معقبَ لحكمه ولا رادَ لقضائه . قال القرطبي : أي لا يمتنع عليه شيءٌ يريده .

ثم قال تعالى : ((**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُود**)) وفي ذكر ذلك تفصيل للبطش الشديد الذي بطش الله به أعداءه وأعداء أوليائه من الأمم التي وقع عليها بطش الله ، و(هل) هنا بمعنى (قد) فهي لا تحتاج إلى جواب ، ثم بيّن ربنا مِن هؤلاء الجنود الذين تجندوا لمحاربة حق الله فقال : ((فِرْعَوْنَ وَثَمُود)) .

وخص- سبحانه- جند فرعون وثمود بالذكر، لأنهم كانوا أشد من غيرهم بغياً وظلماً ، ولأنَّهم كانت قصصُهم معروفةً لأهل مكة أكثر من غيرهم .

قال الرازي : ((اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ حَالَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ فِي تَأَذِّي الْمُؤْمِنِينَ بِالْكُفَّارِ ، بَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ كَانُوا أَيْضًا كَذَلِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَدَلٌ مِنَ الْجُنُودِ ، وَأَرَادَ بِفِرْعَوْنَ إِيَّاهُ وَقَوْمَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ ((مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ)) [يونس: ٨٣] وَثَمُودُ ، كَانُوا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَقِصَّتُهُمْ عِنْدَهُمْ مَشْهُورَةٌ فَذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِرْعَوْنَ ، وَمِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ ثَمُودَ، وَالْمَقْصُودُ بَيَانُ أَنَّ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الْكُفَّارِ فِي جَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى هَذَا النَّهْجِ ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ

قَوْلِهِ : ((بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)) وَلَمَّا طَيَّبَ قَلْبَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحِكَايَةِ أَحْوَالِ الْأَوَّلِينَ فِي هَذَا الْبَابِ سَلَّاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ((وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيط)) .

إذن في قوله : ((بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)) بيانُ حال قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم أي: لكن الذين كفروا ممن أرسلتَ إليهم ينسبونك إلى الكذب ، ولا يصدقونك فيما تُخبر به من الوحي .

وَحُذِفَ مُتَعَلِّقُ التَّكْذِيبِ لِظُهُورِهِ مِنَ الْمَقَامِ ؛ إِذِ التَّقْدِيرُ : أَنَّهُمْ فِي تَكْذِيبٍ بِالنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ إِلَيْهِ وَبِالْبَعْثِ .

وفي هذا الأسلوب بذكر(في) التي تدل على الظرفية إيماءٌ على شدة تكذيبهم كأنَّ التكذيب وعاءٌ محيطٌ بهم ؛ فهم يُكذّبون ولا يُصدّقون بآيات الله ، لذا جاء السياق بقوله تعالى : ((وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)) فالتكذيبُ محيطٌ بهم لكنَّ الله محيطٌ بهم وبتكذيبهم فلا يفوته منهم شيء ، وهذا أشمل من قوله تعالى : ((إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد)) .

ثم رد على تماديهم في تكذيب القرآن ، وادّعائهم أنَّه أساطيرُ الأولين فقال تعالى : ((بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيد)) وجيء بـ (بل) هنا للانتقال إلى معنى جديد ، وهذا المعنى ((هُوَ قُرْآنٌ مَجِيد)) أي : محفوظ من التبديل والتغيير ، له كمال المجد كما قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)) .

((بل هو قرآن مجيد)) أي : لكن هذا الوحي الذي يُكذّبون به كلامٌ متلوٌّ باللسان العربي وهو كلامٌ كريمٌ شريفٌ ؛ فهو كلام رب العالمين .

وَمُجِّدَ الْقُرْآنُ ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ الْكُتُبِ وَأَكْثَرُهَا مَعَانِيَ وَهَدْيًا وَوَعْظًا ، وَيَزِيدُ عَلَيْهَا بِبَلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَإِعْجَازِهِ الْبَشَرَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ .

إذن في قوله : ((بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد)) فيه تبشيعٌ للفعل فهم لا يُكذّبون بأساطير الأولين إنما يكذبون كلام ربهم المجيد .

والقرآن سُمّي قرآناً لكثرة ما يقرأ ويتلى .

وقد وصف القرآن بالمجيد ؛ لأنه من رب مجيد كامل عظيم كريم .

((فِي لَوْحٍ مَحْفُوظ)) أي : في كتاب محفوظ من الزيادة والنقص فلا تصل إليه يد التخريب .

قال ابن كثير : ((﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أَيْ: عَظِيمٌ كَرِيمٌ، ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ أَيْ : هُوَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَحْفُوظٌ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ)) .

وفي هذه السورة بيان أنَّ الكفار يستخدمون وسائل غاية في القسوة لصد الناس عن دينهم ، وعلى المسلم أنْ يصبر ويصابر في التحمل في سبيل الثبات على العقيدة الصحيحة وعلى دينهم.

والافتتان سنة كونية يتمحص فيها صاحب الإيمان القوي من الضعيف ، وقد وعد الله الصابرين عظيم الأجر .